إريك إيمانويل شميت

مسيو إبراهيم وزهور القرآن

رواية

ترجمة وتقديم محمد سلماوي



تمثل هذه الرواية قصة حب نادرة بين السيد إبراهيم المسلم الذى تخطى السبعين والصبى اليهودى موييس (أى موسى)، وهى لا تحكى عن الحب الذى يمكن أن ينشأ بين رجل وامرأة وإنما ذلك الذى ينشأ بين روحين، والروح لايهم إن كانت لرجل أو لامرأة، لأن الحب فيها ليس للمظهر الخارجى وإنما للمخبر الداخلى.

إن مثل هذه العلاقة النادرة تصبح فى عالمنا هذا أكثر ندرة مع كل يوم جديد، ومع كل صراع جديد يتفجر بين ليلة وضحاها، ذلك أن الصراع لا مكان فيه للروح لأن منطلقاته تكمن فى التعصب والعنصرية وكراهية الإنسان لأخيه الإنسان، رجلا كان أو امرأة.

من هنا تجىء قيمة رواية «مسيو إبراهيم وزهور القرآن» التى تتخطى كل تلك العقبات العنصرية والدينية والحضارية لتقدم لنا علاقة إنسانية جميلة بين مسلم ويهودى، بين شرقى وغربى، بين كهل وصبى .. هى بذلك قصة حب بين شطرى هذا العالم، الشطران المتصارعان أبدا: الشرق والغرب اللذان يجتمعان هنا فى عناق نادر لكنه ـ لقوة القصة ـ يبدو وكأنه عناق أبدى.

محمد سلماوي







مسيو إبراهيم وزهور القرآن

الطبعـة الأولى
سبتمبر ٢٠٠٥م
الطبعـة الثانيـة
ديسمبر ٢٠٠٥م

صـورة الغـلاف مـن فيلـم
مسيو إبراهيم وزهور القرآن

رقم الإيداع ٢٠٠٥/١٦٢٨٤
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 1334 - 0

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ مدينة نصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com



إريك إيمانويل شميت

مسيو إبراهيم وزهور القرآن

رواية

ترجمة وتقديم
محمد سلماوى

دار الشروق

فرانكفورت.. وعمر الشريف
.. وقصة هذا الكتاب

مقدمة بقلم
محمد سلماوى

على مائدة الصديق العزيز عمرو موسى أمين عام جامعة الدول العربية والسيدة زوجته كانت ضيفة الشرف هى سيدة مصر الأولى سوزان مبارك . . كنا فى فرانكفورت أثناء انعقاد معرض الكتاب الدولى الذى حل فيه العالم العربى ضيف شرف لأول مرة فى تاريخ المعرض ، وكانت السيدة سوزان مبارك قد شاركت فى فاعليات المعرض وافتتحت مركزا للعلاقات الدولية به .

أما مناسبة العشاء فكانت حصول الممثل المصرى عمر الشريف على جائزة معرض فرانكفورت فى التقريب بين الشعوب ، وذلك لدوره فى فيلم «مسيو إبراهيم وزهور القرآن» Monsieur Ibrahim et les Fleurs du Coran ، وقد

حضرت السيدة سوزان مبارك تكريم عمر الشريف فى قاعة المؤتمرات بالمعرض وسلمته الجائزة بنفسها .

كان ضيوف العشاء هم : وزير الثقافة الفنان فاروق حسنى ، والمهندس إبراهيم المعلم رئيس مجلس إدارة «دار الشروق» وزوجته أميرة أبوالمجد ، المشرفة على إدارة كتب الأطفال بالدار ، وأنا وزوجتى الفنانة التشكيلية نازلى مدكور .

أما مكان اللقاء فكان أحد أجمل مطاعم مدينة فرانكفورت ، وهو مطعم خاص يقع داخل متحف «شتيدل» الشهير ، الذى يضم مجموعة قيمة من الأعمال الفنية تمتد من القرن الـ١٦ إلى العصر الحديث ، وتحمل توقيعات : بوتيتشلى وهولبين ورامبرانت وفرمير ومونيه وفان جوخ وسيزان وماتيس وبيكاسو وآخرين .

وأثناء العشاء كان عمر الشريف يعلق على مقال كتبته قبل ذلك ببضعة أسابيع حول فيلم «مسيو إبراهيم» ، وأشدت فيه بقيمته الفنية وبمضمونه الفكرى ، الذى قدم صورة عن الإسلام والمسلمين تختلف عن تلك الصورة المشوهة التى تقدمها السينما الأمريكية وبعض أجهزة الإعلام الغربية ، وأخذ عمر الشريف يحكى لسيدة فرنسية حضرت معه هى وزوجها بعض ما قلته فى مقالى ، وجاءت جلستى أثناء العشاء إلى جوار السيدة الفرنسية وزوجها اللذين علمت أنهما لوران بيتان وزوجته ميشيل منتجا فيلم «مسيو إبراهيم» ، وكانا قد حضرا

مع عمر من باريس فى نفس اليوم لتسلم الجائزة والعودة فى صباح اليوم التالى .

وكان من الطبيعى أن يدور الحديث على المائدة عن الفيلم الذى قالت لى منتجته إنها اشترت قصته من كاتبها إريك إمانويل شميت بعد أن ذاع صيتها فى أوروبا كلها وحققت مبيعات كبيرة عند نشرها ، فقد بيع منها فى فرنسا وحدها ٣٠٠ ألف نسخة ، وتمت ترجمتها إلى عشرين لغة أخرى فى العالم كانت آخرها هى الإيطالية التى بيع منها ما يزيد على ٨٠ ألف نسخة .

وبدا غريبا أن رواية «مسيو إبراهيم وزهور القرآن» التى اتخذت لها بطلا مسلما ولاقت كل هذا النجاح لم تترجم إلى العربية ، وتحمس إبراهيم المعلم كعادته كلما سمع عن كتاب ذى قيمة وقال لميشيل بيتان إنه مستعد لنشر الرواية بالعربية إذا اقتنع محمد سلماوى بأن يترجمها بنفسه ، وقد أبدت ميشيل بيتان سعادتها لذلك قائلة إنها من أكثر المتحمسين لرواية شميت ، وأخبرتنا أن حقوق الترجمة مملوكة للناشر الفرنسى ألبان ميشيل ، الذى تعتبر الدار التى يملكها واحدة من كبرى دور النشر الفرنسية ، فقلت إننى شاهدت فى ذلك اليوم جناحهم بالمعرض ، ففرح إبراهيم المعلم لمشاركتهم فى المعرض ووعد بأن يذهب فى اليوم التالى مباشرة لجناحهم ليتفق معهم على حقوق الترجمة بالعربية .

وسألتنى السيدة سوزان مبارك عن رأيى فى أداء عمر الشريف فى هذا الفيلم فقلت إن هذا الدور يمثل إعادة ميلاد لعمر، فبعد أن أمضى سنوات طويلة معتمدا فى جميع أدواره على موهبته ووسامته معا فإنه فى هذا الدور تنازل تماما عن وسامته واعتمد على موهبته وحدها.

وقالت إحدى الحاضرات: لكننى مع ذلك وجدته وسيما بالرغم من منظره الرث وكبر سنه فى الفيلم.

فقلت: تلك هى موهبة عمر الشريف، فدور مسيو إبراهيم يعتمد على جمال الروح، وقد استطاع عمر بموهبته أن يخرج هذا الجمال الداخلى الكامن فى الشخصية، وفعل ذلك ببساطة وتلقائية وكأنه لم يكن يمثل.

ويعتبر ذلك الجمال الداخلى الذى جسده عمر الشريف من خلال شخصية مسيو إبراهيم هو مفتاح هذه الرواية التى تمثل قصة حب نادرة بين السيد إبراهيم المسلم الذى تخطى السبعين والصبى اليهودى موييس (أى موسى)، وهى لا تحكى عن الحب الذى يمكن أن ينشأ بين رجل وامرأة وإنما ذلك الذى ينشأ بين روحين، والروح لا يهم إن كانت لرجل أو لامرأة، لأن الحب فيها ليس للمظهر الخارجى وإنما للمخبر الداخلى.

إن مثل هذه العلاقة النادرة تصبح فى عالمنا هذا أكثر ندرة مع كل يوم جديد، ومع كل صراع جديد يتفجر بين ليلة

وضحاها، ذلك أن الصراع لا مكان فيه للروح، لأن منطلقاته تكمن فى التعصب والعنصرية وكراهية الإنسان لأخيه الإنسان، رجلا كان أو امرأة.

من هنا تجىء قيمة رواية «مسيو إبراهيم وزهور القرآن» التى تتخطى كل تلك العقبات العنصرية والدينية والحضارية، لتقدم لنا علاقة إنسانية جميلة بين مسلم ويهودى، بين شرقى وغربى، بين كهل وصبى.

وتبدأ الرواية وكل من بطليها فى مكانه البعيد عن الآخر، رغم أن الحياة قد وضعتهما فى موقع واحد هو الشارع الأزرق La Rue Bleue، الذى يسكن فيه الصبى موييس اليهودى والذى يقع فيه دكان البقالة الذى يملكه مسيو إبراهيم، فلا حديث بينهما ولا مودة بل هناك قدر من الازدراء من جانب الصبى الفرنسى لصاحب البقالة المسلم، «ففى النهاية ماهو إلا عربى!»، وهذا يعنى أنه مستباح، لذلك يقوم موييس بسرقة بعض علب الأكل المحفوظ من دكانه دون أدنى تأنيب من ضميره، لكن ما إن يبدأ الكاتب فى نسج خيوط تلك العلاقة الإنسانية بين الرجلين حتى تسقط كل تلك المظاهر الخارجية للأشياء، فنكتشف أن العربى ليس عربيا وحتى الشارع الأزرق ليس أزرق، وفى النهاية يقول موييس إن اسمه ليس موييس بل محمد.

وفى تلك القصة العجيبة يكون الشرق فى شخص مسيو

إبراهيم هو المانح للحب وللحكمة وللنظرة الفلسفية السامية لهذا الكون بما يحويه، فالعلاقة التى تنشأ بين الرجلين تأخذ الصبى الفرنسى من عالم الماديات والمال التى تجسدها سرقاته لمسيو إبراهيم، ومن عالم الرذيلة والحسيات التى تجسدها علاقاته ببائعات الهوى، إلى عالم الحب والروحانيات والحكمة السامية، وبالتوازى مع تلك الرحلة الروحية تأخذنا الرواية فى رحلة جغرافية من الغرب (فرنسا) إلى الشرق (منطقة الأناضول)، حيث الحب والجمال والموسيقى والرقص الصوفى والسمو الروحى.

وحين تكتمل الرحلة يكون الصبى قد وصل إلى المعرفة الكبرى فصار أكثر ثراء فى روحه وفى عقله وفى نظرته للحياة، ويكون مسيو إبراهيم قد أكمل مهمته فيترك هذا العالم إلى عالم الخلود، حيث «الإتساع اللانهائى» كما يقول لموييس حين يجده يبكى على فراقه.

مع ذلك فإن إبراهيم ليس نبيا ولا ملاكا، فهو آدمى من لحم ودم قد تكون له أيضا زلاته، فهو يراوغ مدير صالة بيع السيارات ليوهمه بأنه يعرف القيادة، وهو إنسان واقعى يؤمن بجدوى التجربة الحياتية ولا يعتمد على الكتب النظرية، كما أنه يحتسى الخمر بين آن وآخر، لكنه يجسد فلسفة الإسلام فى الاعتماد على الله والإيمان بما ورد فى القرآن، ومن ثم الجملة التى ظل يرددها دائما لموييس «إنى أعرف ما فى قرآنى»، لذا

تجىء شخصية مسيو إبراهيم على قدر كبير من الثراء الدرامى، وليست شخصية مسطحة أحادية الجانب.

والقصة الإنسانية التى تجمع بين مسيو إبراهيم وموييس قد تبدو قصة حب خاصة بين شخصين محددين، لكن الحقيقة أن رواية «مسيو إبراهيم وزهور القرآن» هى قصة حب بين شطرى هذا العالم، إنهما الشطران المتصارعان أبدا: الشرق والغرب اللذان يجتمعان هنا فى عناق نادر لكنه ـ لقوة القصة ـ يبدو وكأنه عناق أبدى.

إن اهتمام المؤلف بالجمال الداخلى يتخطى موضوع الرواية إلى أسلوبها الأدبى، فقد يعجب القارئ العربى من ذلك الأسلوب الذى يبعد تماما عن اللغة الأدبية المنسابة ويلتزم بأسلوب حيادى لا مكان فيه لأى زخرف، أسلوب اعتمد فيه المؤلف على لغة وصفية تكاد تكون تلغرافية، لأنه اختار أن يترك للمعنى الكامن فى مواقف الرواية ذاتها ـ لا فى أسلوبها ـ أن يبعث الجمال من بداية الرواية إلى نهايتها، فلننظر مثلا إلى مشهد اللقاء الأول بين موييس وأمه التى لم يرها منذ هجرته وهو طفل رضيع، وعلى قدر السيطرة التى فرضها المؤلف على المشاعر الكامنة فى هذا الموقف والتى كان يمكن أن تحيلنا على الفور إلى الميلودراما الرخيصة، لقد اختار المؤلف أن يتم هذا اللقاء المؤثر وسط علب طلاء الحوائط التى تزكم رائحتها الأنوف، وحيث تبذل الأم الجهد فى محاولة ألا يلطخها الطلاء الذى لم يكن قد جف بعد.

وقد كان على الترجمة أن تلتزم بهذا الأسلوب المختصر إلى حد التقشف، والذى صيغت فيه الرواية حتى وإن بدا ذلك غريبا بعض الشيء على القارئ العربى، لأن الترجمة السليمة لا تكمن فى نقل معنى الرواية فقط وإنما يجب أن تسعى أيضا لنقل الأسلوب الأدبى الذى اختاره المؤلف، وتغيير الأسلوب إنما يغير المعنى، فالشكل والمضمون فى الأدب لا ينفصلان ولا يمكن أن يتغير أحدهما دون أن يؤثر على الآخر.

وتشعب الحديث بين الحضور على مائدة السيد عمرو موسى فى مختلف الاتجاهات، ومالت علىّ ميشيل بيتان تبدى إعجابها بشوربة عيش الغراب، فمددت يدى إلى الطبق الموضوع أمامى أتناول الشوربة قبل أن تبرد.

وفى صباح اليوم التالى ذهبت مع الصديق إبراهيم المعلم إلى قسم الناشرين الفرنسيين بمعرض فرانكفورت وتوجهنا إلى جناح ألبان ميشيل، حيث أخذت أبحث عن بقية كتب إريك إمانويل شميت بينما انشغل هو بمسألة حقوق النشر العربى، وقد سعدت أن وجدت لشميت ثلاث روايات أخرى غير «مسيو إبراهيم»، كل واحدة منها تتحدث من خلال قصة إنسانية مثل قصة مسيو إبراهيم والصبى موييس عن دين من الأديان، فقد تبع المؤلف رواية «مسيو إبراهيم» التى صدرت عام ٢٠٠١ برواية أخرى فى العام التالى أسماها «أوسكار والسيدة الوردية» Oscar et la Dame Rose متخذا من

المسيحية موضوعا لها، ثم فى عام ٢٠٠٤ أصدر رواية «طفل نوح» L'Enfant de Noe وكانت عن اليهودية، كما وجدت له رواية أخرى كنت قد قرأتها عند صدورها عام ١٩٩٧ عن البوذية بعنوان «ميلاريبا» Milarepa، وقد أطلق شميت على هذه السلسلة من الكتب التى تعالج مختلف الأديان اسم «سلسلة غير المرئى» Le Cycle de L' Invisible.

كانت هذه السلسلة هى أحدث إنتاج لشميت، وهى التى حققت له شهرة كبيرة فى فرنسا وخارجها، لكنه أصدر قبل ذلك أربع روايات أخرى منذ بدأ يكتب فى بداية التسعينيات، كما كتب ثمانى مسرحيات، لكن تظل رواية «مسيو إبراهيم وزهور القرآن» هى أشهر أعماله منذ صدرت عام ٢٠٠١، وهو نفس العام الذى حصل فيه إريك إيمانويل شميت على الوسام الأكبر للأكاديمية الفرنسية على مجمل أعماله.

محمد سلماوى

مسيو إبراهيم وزهور القرآن

رواية

حين بلغت سن الحادية عشرة كسرت خنزيرى وذهبت إلى بائعات الهوى.

كان خنزيرى هذا حصالة صغيرة من الخزف اللامع لونها لون القيء، بها فتحة تسمح بدخول قطعة النقود ولا تسمح بخروجها، اختارها لى والدى هكذا باتجاه واحد، لأنها كانت تماثل فلسفته فى الحياة القائلة: بأن النقود جعلت للحفظ وليس للإنفاق.

كان هناك مائتا فرانك فى أمعاء الخنزير، حصيلة أربعة أشهر من العمل، وذات صباح قبل أن أتوجه إلى المدرسة قال لى أبى: «موييس (*) إنى لا أفهم.. هناك نقود ناقصة.. من الآن فصاعدا ستكتب فى كراسة المطبخ كل ما تنفقه أثناء خروجك للتسوق».

إذن لم يكن يكفى أن يصرخوا فى وجهى فى المدرسة كما فى البيت، وأن أتولى الغسيل والمذاكرة والطبيخ وأن أقوم بالمشتروات، لم يكن يكفى أن أعيش وحدى فى شقة كبيرة مظلمة، خالية، لا حب فيها، وأن أكون عبدا وليس ابنا

(*) تعنى بالفرنسية موسى.

لمحام بلا عمل وبلا زوجة، بل كان عليّ أيضا أن أتهم بالسرقة، وبما أننى أصبحت الآن موضع شك فلأفعلها إذن.

كان هناك إذن مائتا فرانك فى أحشاء الخنزير، ومائتا فرانك كان هو ثمن الفتاة الواحدة فى شارع «پارادى»(*)، كان هذا المبلغ هو ثمن وصول الرجل لسن البلوغ.

فتيات الهوى اللاتى قابلتهن فى البداية سألننى عن سنى وطلبن رؤية بطاقتى الشخصية، بالرغم من صوتى، وبالرغم من وزنى ـ كنت بدينا كجوال السكر ـ لكنهن تشككن فى صحة ما قلت من أن سنى ١٦ عاما. لابد أنهن ظللن لسنوات يشاهدننى أمر أمامهن فى الطريق وأنا أحمل شبكة التسوق المليئة بالخضار الذى كنت أنزل لشرائه.

فى نهاية الشارع، تحت البوابة، كانت هناك فتاة جديدة، كان بجسدها استدارات جميلة مثل نساء الرسوم، أطلعتها على نقودى فابتسمت.

ـ أعندك حقا ١٦ عاما؟

ـ طبعا، منذ صباح اليوم.

صعدنا سويا للطابق العلوى، لم أكد أصدق، كان عمرها ٢٢ سنة، كانت تكبرنى لكنها كانت لى بالكامل، شرحت لى كيف أغتسل ثم كيف أطارحها الغرام.

(*) تعنى بالفرنسية الفردوس.

كنت بالطبع أعرف ذلك مسبقا لكنى تركتها تشرح لى حتى تكون على راحتها، ثم إن صوتها كان يعجبنى فقد كانت تغلب عليه مسحة حزن بسيطة، كنت أشعر طوال الوقت أننى أكاد يغشى عليّ، وفى النهاية ربتت على شعرى برفق وقالت:

ـ يجب أن تأتى فى المرة القادمة ومعك هدية صغيرة.

إذن فقد كان عليّ أن آتى بهدية لكنى نسيت، لا يهم، أنا الآن رجل وقد تم تعميدى بين فخذى امرأة، كادت قدمى تطيران من على الأرض بينما كانت ساقاى ما زالتا ترتعدان.

دخلت الشقة جريا واتجهت مباشرة إلى غرفتى وأخذت أنظر حولى باحثا عن أثمن ما أستطيع تقديمه، ثم ركضت عائدا إلى شارع «پارادى» كانت الفتاة ما زالت تحت البوابة فأعطيتها «دبدوبى» المخملى.

• • •

كان ذلك هو نفس الوقت تقريبا الذى عرفت فيه مسيو إبراهيم.

كان مسيو إبراهيم عجوزا منذ عرفناه، كنا بإجماع ذاكرتنا فى شارع «بلو»(*) وشارع «فوبور پواسونيير»(**) نشاهد

(*) تعنى بالفرنسية الأزرق

(**) تعنى بالفرنسية السماكين

مسيو إبراهيم كل يوم فى محل بقالته من الثامنة صباحاً وحتى منتصف الليل، يتنقل ما بين الخزينة وأدوات التنظيف مادا ساقا فى الممر والأخرى تحت علب الكبريت، مرتديا «چاكت» رماديا فوق قميص أبيض، وله أسنان عاجية وشارب مشعث وعينان بلون الفستق المتأرجح ما بين الأخضر والبنى، كانت بشرته القمحية قد امتلأت بالبقع الداكنة الدالة على الحكمة والتى تأتى مع التقدم فى السن، ذلك أن مسيو إبراهيم كان فى نظر الجميع يعتبر حكيما، بلا شك لأنه ظل لمدة أربعين عاما على الأقل العربى الوحيد فى حى يهودى، بلا شك لأنه كان يبتسم كثيرا ويتحدث قليلا، بلا شك لأنه لم يكن ينشغل على الإطلاق بما يشغل بال البشر الأحياء خاصة الباريسيين منهم، فقد كان مسيو إبراهيم ملتصقا دائما بكرسيه الصغير مثل فرع النبات الذى يلصق بالساق المراد تطعيمها، فلا شاهده أحد وهو يرص بضائعه على أرفف المحل، ولا عرف أحد أين يختفى ما بين منتصف الليل والثامنة من صباح اليوم التالى.

كنت كل يوم أقوم بالتسوق وأطهو الوجبات، لم أكن أشترى إلا المعلبات، وإذا كنت أشتريها يوميا فلم يكن ذلك بغرض أن تكون طازجة، وإنما لأن والدى لم يكن يترك لى إلا النقود التى تكفى يوما واحدا فقط، كما أنه كان من الأسهل علىّ أن أطهو الوجبات يوما بيوم.

حين بدأت أسرق والدى لأعاقبه على شكه فىّ أخذت أسرق مسيو إبراهيم أيضا، كنت أشعر ببعض الخجل، ولكن كى أتغلب على شعورى هذا كنت أقول لنفسى وأنا أدفع له الحساب:

ـ ما هو فى النهاية إلا عربى!

كنت كل يوم أحدق فى عينى مسيو إبراهيم، وكان ذلك يمنحنى الشجاعة.

ـ ما هو فى النهاية إلا عربى!

ـ لست عربيا يا مومو. إننى من الهلال الذهبى.

لملمت مشترواتى وخرجت إلى الشارع مذهولا، لقد سمعنى مسيو إبراهيم وأنا أحدث نفسى، قد يكون سمعنى وأنا أفكر أيضا، وربما كان يعرف أننى أغشه.

فى اليوم التالى لم أخف عنه أى من علب الطعام المحفوظ لكنى سألته:

ـ ما هو الهلال الذهبى؟

والحق أننى كنت قد أمضيت الليل بطوله أتصور مسيو إبراهيم جالسا على طرف هلال ذهبى يطير فى سماء مليئة بالنجوم.

ـ إنه الإقليم الذى يبدأ من الأناضول وحتى بلاد فارس يا مومو .

وفى اليوم التالى أردفت قائلاً وأنا أخرج حافظة نقودى :

ـ اسمى ليس مومو إنه موييس .

وفى اليوم التالى كان هو الذى قال :

ـ أعلم أن اسمك موييس ، ولهذا أناديك مومو لأنه أقل هيبة .

وفى اليوم التالى سألته وأنا أعد باقى نقودى :

ـ وما دخلك فى هذا؟ إن موييس هو اسم يهودى وليس عربيا .

ـ لست عربيا يا مومو . . إنى مسلم .

ـ إذن لماذا يقولون إنك العربى الوحيد فى الشارع إن لم تكن عربيا؟

ـ لأن عربى يا مومو تعنى فى عالم البقالة «مفتوح من الثامنة صباحا إلى منتصف الليل حتى فى أيام الآحاد» .

هكذا كانت تدور المحادثة بيننا جملة واحدة فى اليوم ، كان لدينا وقت ، هو لأنه عجوز ، وأنا لأننى صغير ، ومرة كل يومين كنت أسرق منه علبة طعام محفوظ .

أتصور أننا كان سيلزمنا عام كامل أو ربما اثنان لكى نجرى محادثة مدتها ساعة لو لم نكن التقينا بريجيت باردو .

سَرَت فى شارع « بلو » حالة هرج ومرج ، وتوقفت فيه حركة المرور تماماً ، وأغلق الشارع : هناك فيلم سينمائى يجرى تصويره .

كل من له غريزة جنسية فى شارع « بلو » أو شارع « پاپيون » أو «فوبور پواسونيير» كان فى حالة تأهب ، النساء يردن التأكد إن كانت على نفس درجة الجمال التى يقلنها عنها ، والرجال لم يعودوا يفكرون فى شىء ، حديثهم كله توقف عند فتحة سراويلهم ، فبريجيت باردو هنا! بريجيت باردو الأصلية بشحمها ولحمها .

أما أنا فوقفت فى النافذة أتطلع إليها ، كانت تذكرنى بقطة جيراننا الذين يسكنون فى الدور الرابع ، كانت قطة صغيرة جميلة تعشق التمدد فى الشمس بالشرفة ، لم تكن تحيا أو تتنفس أو ترمش بأهدابها إلا لتثير الإعجاب .

حين دققت فيها النظر وجدت أيضا أنها تشبه فى الحقيقة غانيات شارع «پارادى» ، دون أن أدرك أن غانيات شارع «پارادى» هن فى الواقع اللاتى كن يتنكرن فى شكل بريجيت باردو كى يجتذبن الزبائن ، وأخيرا كانت الدهشة الكبرى حين شاهدت مسيو إبراهيم يعبر عتبة دكانه لأول مرة على الأقل منذ خلقت . قام مسيو إبراهيم من على كرسيه الصغير وخرج إلى الشارع .

بعد أن شاهدت تلك المخلوقة الصغيرة بريجيت باردو وهى تنفث بسحرها للكاميرات، فكرت فى الفتاة الجميلة ذات الشعور الذهبية والتى أصبحت تمتلك «دبدوبى» الصغير، وقررت أن أنزل إلى دكان مسيو إبراهيم وأن أنتهز فرصة وجوده خارج الدكان كى أسرق بعض علب الطعام المحفوظ.

يا للكارثة! لقد عاد مرة أخرى وجلس خلف خزينته، كانت عيناه تضحكان فرحا وهو يتأمل باردو من فوق قوالب الصابون ومشابك الغسيل، ولم أكن قد رأيته على هذا النحو من قبل.

ـ هل أنت متزوج يا مسيو إبراهيم؟

ـ بالطبع أنى متزوج.

لم يكن معتادا علىّ أن يوجه له أحد أسئلة.

فى تلك اللحظة كان بإمكانى أن أقسم أن مسيو إبراهيم لم يكن عجوزا بالدرجة التى كان الجميع يعتقدونها.

ـ مسيو إبراهيم، تصور أنك فى قارب مع زوجتك وبريجيت باردو ثم غرق القارب، ماذا كنت تفعل؟

ـ أراهنك أنه سيتضح أن زوجتى تعرف السباحة.

لم أر فى حياتى عينين تضحكان بهذا القدر، كانتا

تضحكان إلى حد القهقهة، حتى كادتا تطلقان صخب الجحيم ذاته.

وفجأة اكتظ المكان بالناس وأخذ مسيو إبراهيم وضع الاستعداد، فقد دخلت بريجيت باردو الدكان.

ـ صباح الخير يا مسيو، هل لديكم ماء؟

ـ بالطبع يا آنستى.

وهنا حدث ما لا يمكن تصوره، فقد ذهب مسيو إبراهيم بنفسه لإحضار زجاجة مياه من على أحد الأرفف وقدمها لها.

ـ شكرا يا مسيو، كم ثمنها؟

ـ أربعون فرانكا يا آنستى.

وشهقت بريجيت، وأنا كذلك، فزجاجة المياه كانت تساوى آنذاك فرانكين وليس أربعينا.

ـ لم أكن أعرف أن الماء نادر هنا إلى هذا الحد.

ـ ليست المياه هى النادرة يا آنستى وإنما النجوم الحقيقيون.

قال ذلك بطريقة ساحرة وبابتسامة لا تقاوم فتوردت وجنتا بريجيت باردو قليلا وأخرجت الأربعين فرانكا وذهبت.

لم أصدق عينى.

ـ إن لديك جرأة يا مسيو إبراهيم.

- إيه يا صغيرى مومو، إن علىّ أن أعوض جميع تلك العلب التى تسرقها منى.

كان هذا هو اليوم الذى أصبحنا فيه أصدقاء، كان من الممكن بعد ذلك أن أذهب لسرقة علب الطعام المحفوظ من مكان آخر، لكن مسيو إبراهيم أخذ علىّ تعهدا.

- مومو إذا كان عليك أن تستمر فى السرقة فافعل ذلك عندى أنا.

فى الأيام التالية أعطانى مسيو إبراهيم عدة أفكار كى أوفر لنفسى بعض المال دون أن يلحظ والدى ذلك: أن أقدم له خبز الأمس أو أول أمس بعد أن أدفئه قليلا فى الفرن، أن أضيف بعض «الشيكوريا» إلى بن القهوة، أن أعيد استخدام أكياس الشاى أكثر من مرة، أن أخفف نبيذ «البوچوليه» بالنبيذ الرخيص الذى لا يزيد ثمن زجاجته على ثلاثة فرانكات، ثم كانت قمة ذلك كله فى تلك الفكرة الجهنمية التى أثبتت أن مسيو إبراهيم خبير حقا فى سحق هذا العالم: أن أستبدل عجينة اللحم المحفوظ بنوع أرخص مخصص لإطعام الكلاب.

وبفضل مساعدة مسيو إبراهيم انشق أمامى عالم الكبار ولم يعد يمثل ذلك الحائط المنيع الذى كنت أرتطم به، وها هى يد قد امتدت إلى الآن من خلال هذا الشق.

تمكنت من اقتصاد مائتى فرانك، فذهبت لأثبت من جديد رجولتى.

شارع «پارادى»، مشيت مباشرة فى اتجاه «البوابة»، حيث مكان المالكة الجديدة لـ «دبدوبى»، أحضرت لها هذه المرة صدفة بحرية كنت قد تلقيتها كهدية، صدفة حقيقية من أصداف البحر، البحر الحقيقى.

ابتسمت لى الفتاة.

فى تلك اللحظة انطلق من الحارة رجل يجرى مندفعا كالفأر، ثم تبعته إحدى المومسات وهى تصيح:

- حرامى! امسكوا الحرامى!

بلا تردد مددت ساقى إلى الأمام فتعثر الحرامى ووقع على الأرض على بعد أمتار قليلة فارتميت فوقه.

نظر إلىّ اللص فوجد أننى مجرد طفل فابتسم واستعد كى يوسعنى ضربا، لكن لأن الفتاة كانت ما زالت تصيح فى الشارع، ما إن وقف اللص على قدميه حتى فر هاربا، من حسن حظى أن صيحات المومس منحتنى بعض القوة.

أقبلت تتأرجح فوق كعبيها العاليين، مددت لها حقيبة يدها فاحتضنتها وهى فى قمة السعادة إلى صدرها المكتنز الذى كان لابد يجيد التأوه.

ـ شكرا يا صغيرى. كيف يمكننى أن أكافئك؟ . . أتريد أن أمنحك مرة مجانا؟

كانت كبيرة فى الثلاثين، لكن مسيو إبراهيم كثيرا ما قال لى إنه يجب ألا تجرح امرأة.

ـ حسن.

صعدنا معا، بدت مالكة «دبدوبى» غاضبة من أن زميلتها قد سرقتنى منها، وحين مررنا أمامها همست لى فى إذنى:

ـ تعال غدا، أنا أيضا سأمنحك مرة مجانا.

لم أنتظر الغد . . .

• • •

مسيو إبراهيم وبائعات الهوى جعلوا حياتى مع أبى أكثر صعوبة، فقد بدأت أقارن بينهما، وفى حين كنت أشعر بالبرودة مع أبى كنت مع مسيو إبراهيم والمومسات أشعر بالدفء وبالنور.

كنت أنظر إلى المكتبة العالية المتوارثة فى العائلة، كل تلك الكتب التى من المفترض أنها تحوى خلاصة العقل الإنسانى، ومجمل القوانين ودقائق الفلسفة، كنت أنظر إليها فى الظلام.

ـ «موييس» أغلق النوافذ إن الضوء يتلف المجلدات.

ثم كنت أنظر إلى والدى وهو يقرأ فى مقعده الوثير منعزلا داخل دائرة الضوء المنبعث من المصباح المجاور له والتى كانت تتركز على الصفحات كالضمير الكاشف، كان منغلقا على نفسه فيما يقرأ من معارف وعلوم، ولم يكن يعيرنى اهتماما يزيد على ما قد يعيره الإنسان لكلب، على أن والدى كان يكره الكلاب، ولم تكن لديه حتى الرغبة فى أن يقذف لى بقطعة عظم من معارفه وعلومه، وإذا أحدثت بعض الضوضاء . .

ـ أنا آسف.

ـ موييس اصمت، إنى أقرأ، إنى أعمل، إنى . .

العمل كان هو الكلمة الكبرى والتبرير المطلق.

ـ آسف يا بابا.

ـ حمدا لله أن أخاك بوبول لم يكن كذلك.

بوبول كان هو نقيض العدم الذى كنت أساويه، كان والدى يقذف فى وجهى دائما بذكرى شقيقى الأكبر بوبول كلما أخطأت فى شىء: «بوبول كان دائما متفوقا فى المدرسة، بوبول كان يحب الرياضيات، لم يكن يلوث حوض الاستحمام، بوبول لم يكن يتبول على جانبى مقعد المرحاض، بوبول كان يحب كثيرا قراءة الكتب التى يحبها بابا».

لم تكن كل هذه الحقائق أسوأ من حقيقة أخرى هى أن أمى

تركت البيت مع پوپول بعد ولادتى بفترة وجيزة، صحيح أن العيش مع ذكرى أليمة صعب على الإنسان، لكن العيش إلى جوار پوپول، المثال الحى للكمال فى كل شىء، كان أكبر بكثير مما أستطيع تحمله.

ـ پاپا هل تعتقد أن پوپول كان سيحبنى؟

أخذ والدى يتفحص وجهى محاولا فهم مقصدى.

ـ يا له من سؤال! تلك هى إجابتى: يا له من سؤال!

تعلمت أن أنظر إلى الناس من خلال أعين والدى بتوجس وازدراء، أما أن أتحدث مع البقال العربى (حتى لو لم يكن عربيا، طالما أن عربيا تعنى فى البقالة مفتوح فى المساء وفى أيام الآحاد) أو أسدى معروفا لإحدى بائعات الهوى، فكانت أشياء أختزنها فى درج سرى داخل نفسى، حتى لا تكون جزءا رسميا من حياتى.

ـ لماذا لا تبتسم أبدا يا مومو؟

سألنى مسيو إبراهيم.

كانت تلك لطمة حقيقية، لم أكن مستعدا لها.

ـ الابتسام هو إحدى خصائص الأغنياء يا مسيو إبراهيم وأنا غير متيسر الحال.

وبالطبع أخذ يبتسم. كى يغيظنى.

ـ أتعتقد إذن أننى غنى؟

ـ إن لديك دائما أوراقا نقدية فى الخزينة، لست أعرف أحدا يوجد أمامه طوال اليوم هذا القدر من المال.

ـ لكن تلك الأوراق النقدية هى التى تمكننى من دفع ثمن البضائع والإيجار، وفى نهاية الشهر لا يتبقى لى منها إلا القليل.

ثم أخذ يبتسم أكثر وكأنه يريد أن يعكر علىّ حياتى.

ـ مسيو إبراهيم، حين قلت إن الابتسام هو إحدى خصائص الأغنياء كنت أريد القول إنه من خصائص السعداء.

ـ وهذا هو خطأك، إن الابتسام هو الذى يجعل الإنسان سعيدا.

ـ هراء.

ـ حاول.

ـ أقول لك هراء.

ـ مع أنك مهذب يا مومو.

ـ إنى مضطر أن أكون كذلك، وإلا أخذت فوق دماغى.

ـ أن يكون المرء مهذبا شىء جيد، أن يكون لطيفا شىء أفضل، جرب أن تبتسم، سترى.

طلب منى مسيو إبراهيم ذلك بذوق شديد وهو يناولنى علبة كرنب محفوظ من أفضل نوع ، فكان علىّ أن أجرب .

فى اليوم التالى كنت كالمريض حقا الذى أصابه مس فى الليل : أخذت أبتسم لكل الناس .

ـ إنى آسف يا سيدتى لم أفهم تدريب الرياضيات .

إبتسامة!

ـ لم أتمكن من حل المسألة .

ـ حسن يا موييس ، سأعاود شرحها لك .

كان ذلك جديد تماما علىّ ، لا صياح ، لا تحذير ، على الإطلاق .

فى «الكانتين» :

ـ أيمكننى أن أحصل على المزيد من كريمة «أبو فروة»؟

ابتسامة!

ـ نعم ، مع الجبن الأبيض . .

وأحصل عليه .

وفى الصالة الرياضية أدركت أننى نسيت حذاء التنس .

ابتسامة!

ـ لكنى تركتها كى تجف يا أستاذ .

يضحك المدرس ويربت على كتفى .

إنها الشمالة . لم يعد هناك شىء يستطيع مقاومتى ، لقد منحنى مسيو إبراهيم أمضى سلاح ، أخذت أمطر العالم أجمع بوابل من ابتساماتى . لم يعد أحد يعاملنى كصرصار .

عند عودتى من المدرسة دخلت شارع «پارادى» وسألت أجمل الفتيات . تلك السوداء الطويلة التى كانت ترفضنى دائما .

ـ هيا؟

ابتسامة!

ـ أنصعد؟

ابتسامة!

ـ هل أكملت الـ ١٦ عاما؟

ـ بالطبع أكملت ١٦ عاما ، منذ فترة .

ابتسامة!

صعدنا .

ثم رويت لها أثناء ارتدائى ملابسى ، أننى صحفى ، وأننى أعد كتابا ضخما عن بائعات الهوى .

ابتسامة!

. . وأننى بحاجة لأن تحكى لى قليلا عن حياتها، إذا سمحت.

ـ أصحيح هذا؟ أنت صحفى؟

ابتسامة!

ـ نعم، أقصد طالب وصحفى.

بدأت تحدثنى. أخذت أنظر إلى صدرها الذى كان ينبض كلما انفعلت فى الحديث، إنى غير مصدق، امرأة تحدثنى أنا؟ امرأة؟

ابتسامة!

تواصل الحديث.

ابتسامة!

تواصل الحديث.

فى المساء حين عاد والدى ساعدته كالعادة فى خلع معطفه، مررت أمامه فى النور كى أتأكد أنه يرانى.

ـ هل الطعام جاهز؟

ابتسامة!

ينظر إلىّ فى استغراب.

أستمر فى الابتسام، إنه لشىء متعب فى نهاية اليوم لكننى أواصل الابتسام.

ـ هل ارتكبت حماقة؟

هنا تختفى الابتسامة.

لكننى لا أيأس.

قبل نهاية العشاء ومع الحلو أحاول مرة أخرى.

ابتسامة!

يتفحص وجهى بعدم ارتياح.

ـ تعال هنا.

أشعر أن ابتسامتى على وشك أن تنتصر.

هاك ضحية أخرى. اقتربت من والدى، هل سيرغب فى أن يقبلنى؟ لقد قال لى مرة إنه كان يحب دائما أن يقبل پوپول، وإنه كان صبيا حنونا، قد يكون پوپول قد فهم خدعة الابتسام هذه منذ مولده، أو أن والدتى كان لديها الوقت أن تعلمه إياها.

اقتربت جدا من والدى، ملت على كتفيه، كانت رموش عينيه تطرف بقوة، زدت من ابتسامتى حتى أخذ شدقاى يؤلماننى.

ـ يجب أن نضع لك جهاز تقويم لأسنانك، إننى لم ألحظ قط أن أسنانك بارزة للأمام إلى هذا الحد.

كان هذا هو المساء الذى قررت فيه أن أذهب إلى مسيو إبراهيم كل ليلة بعد أن ينام والدى.

- إننى أنا الملام، لو كنت مثل پوپول لكان أسهل على أبى أن يحبنى .

- وما أدراك بذلك؟ لقد رحل پوپول .

- ماذا تقصد؟

- قد يكون أنه لم يطق والدك .

- أتظن ذلك؟

- لقد رحل، إن ذلك لدليل .

أعطانى مسيو إبراهيم العملات المعدنية الصغيرة لأساعده فى وضعها فى لفائف ورقية، وقد هدأ ذلك قليلا من روعى .

- هل كنت تعرفه يا مسيو إبراهيم؟ هل كنت تعرف پوپول ؟ أريد أن أعرف رأيك أنت فيه؟

ضرب بيده على الخزينة وكأنه يمنعها من أن تتكلم .

- مومو دعنى أقل لك شيئا، إننى أفضلك مائة مرة، بل ألف مرة، على پوپول .

- يا سلام؟

سعدت جدا بما قال لكننى لم أشأ أن أظهر ذلك، شددت قبضة يدى وكشرت عن أسنانى . من واجب المرء أن يدافع عن أسرته .

- حذار، إنى لا أسمح لك أن تسىء إلى أخى، ماذا لديك ضد پوپول؟

- كان جيدا پوپول، جيدا جدا، لكن اعذرنى فأنا أفضل مومو .

كنت كريما معه فقبلت عذره .

بعد أسبوع أرسلنى مسيو إبراهيم لصديق له، هو طبيب أسنان شارع «پاپيون»، بالتأكيد أن لمسيو إبراهيم معارف كثيرة، وفى اليوم التالى قال لى :

- مومو، قلل قليلا من ابتسامتك فهذا القدر يكفى . لا لا لقد كنت أمزح، فقد أكد لى صديقى أن أسنانك ليست بحاجة لجهاز تقويم ومال نحوى بعينيه الضاحكتين .

- تخيل نفسك فى شارع «پارادى» والحديد فى فمك، من هى تلك التى ستتمكن من إقناعها أن سنك ١٦ عاما؟

فى ذلك كان مسيو إبراهيم على حق، فى هذه المرة كنت أنا الذى طلبت منه العملات المعدنية لأضعها فى اللفائف كى أهدئ نفسى .

- من أين لك معرفة كل ذلك يا مسيو إبراهيم؟

- أنا لا أعرف شيئا، أعرف فقط ما هو فى قرآنى .

صنعت لفائف أخرى .

- مومو، ليس من الخطأ فى المرات الأولى أن تذهب إلى

المحترفات، يجب دائما الذهاب إلى النساء اللاتى يعرفن جيدا عملهن، لكن بعد ذلك حين تكون هناك تطورات عاطفية، يجب أن تكتفى بالهاويات .

شعرت بالراحة .

ـ هل تذهب أنت أيضا فى بعض الأحيان إلى شارع «پارادى»؟

ـ «الفردوس» مفتوح للجميع .

ـ إنك تتباهى فقط يا مسيو إبراهيم، لا تقل لى إنك ما زلت تذهب فى سنك هذا!

ـ ولم لا؟ هل المكان حكر فقط على القصر؟

هنا شعرت أننى ارتكبت سخفا .

ـ مومو، ما قولك فى أن نذهب معا للنزهة؟

ـ ماذا؟ هل تتنزه أحيانا يا مسيو إبراهيم؟

ها قد ارتكبت سخفا ثانيا، لذ أضفت لكلامى ابتسامة عريضة .

ـ ما أقصده هو أننى دائما أراك على كرسيك هذا .

لكن هذا لم يمنعنى من أن أكون مسرورا جدا .

فى اليوم التالى صحبنى مسيو إبراهيم إلى باريس، باريس الجميلة، تلك التى نراها فى صور السواح، تنزهنا على ضفاف نهر السين الذى اكتشفت أنه فى الحقيقة غير مستقيم .

ـ انظر يا مومو، إن السين يعشق الجسور مثل المرأة المهووسة بأساورها .

ثم مشينا فى حدائق «الشانزليزيه» ما بين المسارح وعروض الدمى، ثم «فوبور سانت أونوريه»، حيث توجد المحلات التى تحمل الأسماء الكبيرة: «لانفان»، «هرميس»، «سان لوران»، «كاردان». . كانت تبدو غريبة هذه المحلات الكبيرة الفارغة بالمقارنة بدكان بقالة مسيو إبراهيم، الذى لم تكن تزيد مساحته على دورة المياه لكن لم تكن به مساحة شعرة واحدة غير مشغولة، وحيث توجد الأرفف المكدسة من الأرضية إلى السقف ببضائع الاحتياجات الأولية والثانية والثالثة أيضا، من رف إلى رف بارتفاع ثلاثة أرفف وعمق أربعة .

ـ إنه لجنون يا مسيو إبراهيم أن تبدو واجهات محلات الأغنياء بهذا الفقر، إنها ليس بها شىء .

ـ ذلك هو الترف يا مومو، الواجهة ليس بها شىء، السعر هو الذى به كل شىء .

وانتهت بنا الجولة فى حدائق القصر الملكى، وهنا دعانى مسيو إبراهيم على كوب عصير ليمون طازج وعاد مرة أخرى لجموده الأسطورى على أحد كراسى البار الصغيرة وهو يحتسى مشروب «سوزآنى» .

ـ لابد أنه جميل أن يعيش المرء فى باريس .

ـ لكنك تعيش فى باريس يا مومو .

ـ لا ، أنا أعيش فى شارع «بلو» .

نظرت إليه وهو يستطعم شرابه .

ـ كنت أعتقد أن المسلمين لا يشربون الكحول .

ـ نعم لكننى صوفى .

هنا شعرت أننى تدخلت فى حياته الخاصة وأن مسيو إبراهيم لا يريد أن يحدثنى عن مرضه ، وهذا فى النهاية حقه ، فصمت إلى أن عدنا لشارع «بلو» .

فى المساء فتحت قاموس «لاروس» الخاص بأبى ، لابد أننى كنت جد قلقا بشأن مسيو إبراهيم ؛ لأننى فى الحقيقة كنت دائما أصاب بخيبة أمل من القواميس .

«الصوفية : حركة إسلامية روحانية نشأت فى القرن الثامن ، تعارض حرفية القوانين الدينية ، وتولى الأهمية الكبرى للعقيدة الداخلية للدين» .

ها هى مرة ثانية ، القواميس لا تشرح جيدا إلا الكلمات التى نعرفها بالفعل .

على أى حال ، إن الصوفية ليست مرضا ، وهو ما طمأننى بعض الشىء ، إنها طريقة تفكير ، حتى ولو كانت هناك طرق للتفكير تعتبر أيضا أمراضا ، كما يقول دائما مسيو إبراهيم .

ومن محاولتى المستميتة لفهم جميع كلمات هذا التعريف اتضح فى النهاية أن مسيو إبراهيم بمشروبه الكحولى يؤمن بالله وفق العقيدة الإسلامية ، ولكن بطريقة يبدو أنها تكاد تقترب من الخارجين على الدين ، إذ إن فكرة معارضة القوانين أقلقتنى بعض الشىء ، فإذا كانت حرفية القانون هى اتباع القانون بكل دقة ، كما يقول أصحاب القاموس ، فإن لذلك معانى مقلقة مؤداها أن مسيو إبراهيم غير شريف ، لأنه لا يتبع القانون حرفيا ، وأننى بذلك أخالط أناسا لا يجب علىّ مخالطتهم .

لكن فى الوقت نفسه إذا كان التزام القانون يعنى أن يصبح المرء محاميا مثل والدى ، وأن يكون عابس الوجه ، وأن يملأ المنزل كآبة ، فإننى أفضل أن أعارض حرفية القانون مثل مسيو إبراهيم .

ثم أضاف القاموس أن الصوفية أنشأها رجلان قديمان هما الحلاج والغزالى ، اسمان لابد أن صاحبيها يليق بهما العيش فى الغرف المنزوية فى نهاية الشارع ، شارع «بلو» طبعا ، ونص القاموس على أن الصوفية دين داخلى .

خلال العشاء لم أستطع أن أمنع نفسى من استجواب والدى ، الذى كان يلتهم لحم الضأن المطهو مع الخضراوات فى صلصلة الطماطم على طريقة «روايال كانان» .

ـ بابا، هل تؤمن بالله؟

نظر إلىّ ثم قال ببطء:

ـ لقد بدأت تصبح رجلا، على ما أرى.

لم أفهم ما هى العلاقة، وللحظة تساءلت إن كان أحد قد أخبره أننى أذهب لزيارة فتيات شارع «پارادى» لكنه أضاف:

ـ لا إنى لم أصل قط إلى الإيمان بالله.

ـ لم تصل قط؟ لماذا؟ هل المسألة بحاجة إلى جهد؟

نظر إلى الظلام المخيم على الشقة من حوله.

ـ أن تؤمن بأن كل ذلك له معنى، نعم لابد من بذل جهد كبير.

ـ لكننا فى النهاية يهود يا بابا، أنا وأنت.

ـ نعم.

ـ وأن تكون يهوديا لا علاقة له بالله؟

ـ بالنسبة لى لم تعد له علاقة، أن تكون يهوديا هو بكل بساطة أن تحمل الذكريات، الذكريات السيئة.

وبدا بالفعل كمن يحتاج عدة أقراص من «الأسبرين» ربما لأنه تحدث ولم تكن تلك عادته، لذلك نهض وذهب مباشرة لينام.

بعد بضعة أيام عاد إلى المنزل ووجهه شاحب أكثر من المعتاد، بدأت أشعر بالذنب، قلت لنفسى ربما كان هذا الخراء الذى كنت أطعمه له هو السبب الذى أفقده صحته.

جلس وأشار إلىّ بأنه يريد أن يقول لى شيئا، لكنه استغرق عشر دقائق قبل أن يفعل ذلك.

ـ لقد فصلت من عملى يا موييس، لم يعودوا يريدوننى فى المكتب الذى أعمل به.

الحقيقة أنه لم يدهشنى قط ألا يرغب الناس فى العمل مع والدى، لابد أنه نجح فى إصابة المتهمين بالاكتئاب، لكن فى نفس الوقت لم أتخيل قط أن محاميا يمكن أن يتوقف عن أن يكون محاميا.

ـ سيكون علىّ أن أعود للبحث عن عمل فى مكان آخر، سيتحتم علينا أن نربط الحزام يا بنى.

ذهب لينام، كان من الواضح أنه لا يهمه أن يعرف رأيى فى الموضوع.

نزلت لمقابلة مسيو إبراهيم. كان يبتسم وهو يمضغ بعض حبات الفول السودانى.

ـ ماذا تفعل أنت يا مسيو إبراهيم كى تكون سعيدا؟

ـ إنى أعرف ما فى قرآنى.

ـ ربما كان عليّ في يوم ما أن أسرق قرآنك، بالرغم من أن ذلك لا يجوز حين تكون يهوديا.

ـ ماذا يعنى بالنسبة لك يا مومو أن تكون يهوديا.

ـ لا أعرف، بالنسبة لأبى يعنى ذلك أن تكون مكتئبا طوال اليوم، بالنسبة لى هو مجرد شيء يمنعنى من أن أصبح شيئا آخر.

قدم لى مسيو إبراهيم حبة فول.

ـ حذاؤك بلى يا مومو، سنذهب غدا لشراء حذاء.

ـ ولكن. .

ـ الإنسان يمضى حياته فى مكان من اثنين: إما فى سريره أو فى حذائه.

ـ ليس معى نقود يا مسيو إبراهيم.

ـ سأشتريه أنا، إنه هديتى لك يا مومو، أنت لا تملك إلا زوجا واحدا من الأقدام، عليك أن تعتنى به، إذا آلمك الحذاء فلتغيره لأن قدميك ليس بإمكانك تغييرهما.

فى اليوم التالى لدى عودتى من المدرسة وجدت مظروفا من والدى ملقى على الأرض فى مدخل الشقة المعتم، ولا أعرف لماذا بمجرد أن رأيت خط والدى بدأ قلبى يخفق بشدة:

«موييس اعذرنى لقد رحلت. ليس لدّى شيء يؤهلنى أن أكون أبا. . مع بوبو. .»

هنا كان بقية الكلام مشطوبا، لابد أنه كان يريد أن يقذف إلىّ بجملة عن بوبول، من نوعية:

«مع بوبول كنت أستطيع أن أكون أبا، لكن ليس معك».

أو «بوبول كان يمنحنى القوة والقدرة على أن أكون أبا، لكن أنت لا».

باختصار كان هناك شيء سخيف كان يريد أن يكتبه لى لكنه خجل من أن يفعل، على أى حال لقد تبينت نية والدى.

شكرا.

«ربما التقينا فى يوم ما بعد ذلك حين تكبر، حين أكون أقل خجلا وتكون قد سامحتنى. الوداع».

هو ذاك إذن، الوداع!

«ملحوظة: تركت على المنضدة كل المال الذى تبقى لى، هذه قائمة بأسماء الناس الذين عليك أن تخبرهم بغيابى سيعتنون بأمرك».

وتبع ذلك قائمة بأربعة أسماء لا أعرفها.

اتخذت قرارى، كان علىّ الآن أن أتظاهر.

كان من المستبعد تماما أن أعترف بأن والدى قد هجرنى. . بأننى قد هجرت مرتين، مرة حين هجرتنى أمى بمجرد أن ولدتنى، ومرة ثانية حين هجرنى أبى بمجرد أن بلغت سن

المراهقة، إذا عُرف عنى ذلك فلن يمنحنى أحد أية فرصة، ما هو ذلك الشىء الفظيع الذى كان بى؟ ما هو ذلك الشىء الذى يجعل حب الناس لى مستحيلا؟

كان قرارى نهائيا: سأتظاهر بوجود أبى، سأتصرف أمام الجميع وكأنه ما زال هنا، ويأكل هنا، وكأنه يمضى معى أمسياته الطويلة المملة.

لم أمكث لحظة. نزلت إلى دكان البقالة.

ـ مسيو إبراهيم، والدى لديه عسر هضم، ماذا أعطيه؟

ـ أعطيه «فرنيه برانكا» يا مومو، انتظر إن لدى هنا عبوة ظريفة.

ـ شكرا، سأصعد على الفور وأجعله يتجرعها.

بالنقود التى تركها لى أبى يمكن أن أتماسك شهرا، تعلمت أن أقلد إمضاءه لكى أملأ الاستمارات الضرورية، لكى أرد على خطابات المدرسة. استمررت أطبخ لشخصين، كل ليلة كنت أضع طبقا أمامى، فقط كنت فى نهاية العشاء ألقى بطعامه فى البالوعة.

كنت كل بضع ليال أجلس فى مقعد والدى وألبس «البلوفر» الخاص به وحذاءه، وأضع بعض الدقيق الأبيض على شعرى من أجل الجيران الذين فى مواجهتنا، بينما كنت أقرأ قرآنا جديدا أهداه لى مسيو إبراهيم بعد أن رجوته ذلك.

وفى المدرسة قلت لنفسى إننى ليست لى لحظة أضيعها: يجب أن أقع فى الحب، لم يكن هناك خيار، وبما أن المدرسة لم تكن مختلطة، فقد وقعنا جميعا فى حب ابنة البواب ميريام التى عرفت سريعا رغم سنواتها الثلاث عشرة أنها تستحوذ على عواطف ثلاثمائة من المراهقين العطشى، أخذت أغازلها بلهفة من يحاول إنقاذ نفسه من الغرق.

ابتسامة!

كان علىّ أن أثبت لنفسى أنه من الممكن أن يحبنى أحد، وكان علىّ أن أجعل العالم كله يعرف ذلك قبل أن يكتشف أحد أن والدىّ اللذين كانا مجبرين على تحملى قد فضلا الهروب منى.

رويت لمسيو إبراهيم كيف غزوت مريام، ظل يسمعنى وعلى وجهه ابتسامة من يعرف نهاية القصة، لكنى تظاهرت بأنى لم ألحظ ذلك.

ـ وكيف حال والدك؟ إنى لم أعد أراه فى الصباح..

ـ لديه الكثير من العمل وهو يضطر الآن فى عمله الجديد أن يخرج مبكرا.

ـ حقا؟ أوليس غاضبا من أنك تقرأ القرآن؟

ـ أنى أختبئ على أى حال.. ثم إننى لم أفهم منه شيئا.

ـ حين نريد أن نتعلم شيئا فليس علينا بكتاب، وإنما علينا أن نتحدث إلى إنسان، أنا لا أؤمن بالكتب.

ـ ومع ذلك فإنك يا مسيو إبراهيم تقول لى دائما إنك تعرف ما فى . . .

ـ نعم إنى أعرف ما فى قرآنى . . مومو إنى أتوق لرؤية البحر، ماذا لو ذهبنا إلى نورماندى؟ أتحب أن آخذك إلى هناك؟

ـ حقا؟

ـ لو وافق والدك طبعا.

ـ سيوافق.

ـ أأنت متأكد؟

ـ أقول لك إنه سيوافق.

حين وصلنا إلى بهو فندق «جراند أوتيل» فى كابور، كان ذلك أكثر مما أستطيع احتماله، لم أتمالك نفسى، أخذت أبكى، ظللت أبكى ساعتين، ثلاث ساعات، لم أستطع أن ألفظ أنفاسى.

كان مسيو إبراهيم ينظر إلىّ وأنا أبكى، ظل ينتظر بصبر أن أبدأ فى الحديث، فى النهاية نطقت:

ـ هذا المكان جميل يا مسيو إبراهيم، جميل جدا، إننى لا أستحق كل هذا.

ابتسم مسيو إبراهيم:

ـ الجمال موجود فى كل مكان يا مومو، أينما وجهت نظرك، هذا فى قرآنى.

بعد ذلك مشينا على امتداد الشاطئ.

ـ أتدرى يا مومو أن الإنسان الذى لم يطلعه الله على الحياة بشكل مباشر لا يمكن أن يطلع عليها من خلال كتاب.

حدثته عن ميريام، حدثته عنها بقدر ما تحاشيت الحديث عن والدى، فبعد أن قبلتنى ميريام فى بلاط خاطبى ودها، بدأت تلفظنى وكأنى مرشح غير مناسب.

ـ لا عليك، قال مسيو إبراهيم، إن حبك لها ملك لك، أنت الذى تملكه حتى لو هى رفضته، فهى لن تستطيع تغييره، كل ما فى الأمر أنها لن تستمتع به، إن ما تعطيه يا مومو يظل لك طوال العمر، أما ما تبقى عليه فهو ضائع إلى الأبد.

ـ وأنت هل لك زوجة؟

ـ نعم.

ـ ولماذا هى ليست معك هنا؟

أشار إلى البحر بأصبعه.

ـ إن البحر هنا بحر إنجليزى حقا، أخضر ورمادى، إنها ليست

الألوان الطبيعية للماء، تكاد تظن أنه يتحدث بلكنة إنجليزية.

- لم تجب عليّ يا مسيو إبراهيم بخصوص زوجتك، ماذا عن زوجتك؟

- عدم الجواب هو أيضا جواب يامومو.

كل صباح كان مسيو إبراهيم هو أول من يستيقظ، كان يقترب من النافذة ليستنشق ضوء النهار ثم يبدأ تدريباته الرياضية ببطء، كل صباح، طوال عمره، تدريباته الرياضية، كانت لديه مرونة غير معقولة، ومن على وسادتى بعينين نصف مفتوحتين كنت أرى ذلك الشاب طويل القامة غير المكترث الذى لابد أنه كان مسيو إبراهيم منذ زمن بعيد.

مفاجأتى الكبرى كانت أننى اكتشفت ذات يوم فى الحمام أن مسيو إبراهيم قد أجريت له عمليه الختان.

- أنت أيضا يا مسيو إبراهيم؟

- المسلمون واليهود يا مومو، إنه قربان إبراهيم، لقد قدم طفله لله قائلا له إن بإمكانه أن يأخذه، إن قطعة الجلد تلك التى تنقصنا هى علامة إبراهيم، ففى الختان يمسك الأب بابنه، الأب يقدم آلامه فى ذكرى قربان إبراهيم.

مع مسيو إبراهيم أدركت أن اليهود والمسلمين وحتى المسيحيين كان لهم رجال عظام كثيرون مشتركون قبل أن يتعاركوا فيما بينهم، ولم يكن هذا يعنينى لكنه كان يريحنى.

بعد عودتنا من نورماندى، حين دخلت الشقة المظلمة الخالية، لم أشعر باختلاف، لا، لكنى شعرت بأن العالم يمكن أن يكون مختلفا، قلت لنفسى إن بإمكانى أن أفتح النوافذ، إن الحوائط يمكن أن يكون لونها أفتح، قلت لنفسى إنى لم أكن مضطرا أن أحتفظ بهذا الأثاث الذى كان يحمل رائحة الماضى، ليس الماضى الجميل، وإنما الماضى الغابر، العطن، ذو الرائحة الكريهة، كخيشة مسح الأرضية.

لم يتبق معى نقود، بدأت أبيع الكتب بالجملة لباعة الكتب على أرصفة نهر السين والذين كنت قد عرفتهم عن طريق مسيو إبراهيم أثناء تنزهنا، وفى كل مرة كنت أبيع كتابا كنت أشعر أننى أكثر حرية.

مضى على اختفاء أبى ثلاثة أشهر الآن، كنت ما زلت أتصرف وكأنه موجود، كنت أطبخ لاثنين، ومن الغريب أن مسيو إبراهيم أصبحت أسئلته عنه أقل فأقل، وعلاقتى بمريام أخذت تسوء أكثر فأكثر، لكنها كانت تمنحنى موضوعا جيداً للحديث فى الليل مع مسيو إبراهيم.

فى بعض الأمسيات كنت اشعر بانقباض فى قلبى لأنى كنت أفكر فى پوپول، الآن وقد أصبح أبى غير موجود كنت أود أن أعرف پوپول، بالتأكيد كنت سأتقبله أكثر لأن أحدا لم يكن سيقذف به فى وجهى وكأنه الصورة الضد لصورتى العديمة القيمة، كنت كثيرا ما آوى إلى الفراش وأنا أفكر فى أنه فى مكان ما فى هذا العالم يوجد لى أخ وسيم ومثالى لا أعرفه، لكن ربما سألقاه فى يوم من الأيام.

ذات صباح طرقت بابى الشرطة، صاحوا كما فى الأفلام:

ـ افتح! الشرطة!

قلت لنفسى: قضى الأمر إذن، قد كذبت كثيرا، الآن جاءوا يقبضون علىّ.

وضعت علىّ الـ «روب» وفتحت جميع الأقفال، بدوا لى أقل شرا مما كنت أتخيل، حتى إنهم طلبوا منى بكل ذوق إن كان بإمكانهم الدخول، كنت أفضل أن أرتدى ملابسى قبل أن أساق إلى السجن.

فى «الصالون» أخذ المفتش يدى وقال لى فى لطف: يا بنى إن لدينا خبرا سيئا لك، والدك توفى.

لست أدرى ما الذى أدهشنى أكثر؟ وفاة والدى أم الطريقة المهذبة التى خاطبنى بها الشرطى؟

ارتميت على الفور فى المقعد الذى كان يجلس فيه أبى.

ـ لقد ألقى بنفسه تحت القطار بالقرب من مارسيليا.

هذا أيضا كان غريبا أن يذهب ليفعل ذلك فى مارسيليا، القطارات توجد فى كل مكان، وأكثرها توجد فى باريس، من المؤكد أننى لن أفهم والدى أبدا.

ـ الدلائل كلها تشير إلى أن والدك كان فى حالة من اليأس الكامل وأنه أنهى حياته بنفسه.

والدى انتحر، هاك شىء لن يسهم فى تحسين حالتى، وفى النهاية وجدت نفسى أفضل عليه والدا هجرنى، كان بإمكانى على الأقل أن أفترض أنه كان سيشعر بالندم.

بدا أن رجال الشرطة يتفهمون صمتى، نظروا إلى المكتبة الخاوية من الكتب والشقة الكئيبة من حولهم وهم يقولون لأنفسهم: خلال دقائق سنخرج من هنا.

ـ من هم الأشخاص الذين علينا أن نخبرهم يا بنى؟

هنا كان لى أخيرا رد فعل مناسب، نهضت وذهبت لإحضار قائمة الأسماء الأربعة التى تركها لى والدى عند رحيله، وضعها المفتش فى جيبه.

ـ سنقدم ذلك للتأمينات الاجتماعية.

ثم اقترب منى بعينين كعينى كلب كسير ، خشيت أن يباغتنى بعمل بغيض .

ـ الآن لدى موضوع حساس أريد أن أطلبه منك ، إن عليك أن تتعرف على الجثة .

كان هذا بمثابة إشارة الخطر ، بدأت أصرخ كأن أحدا قد ضغط على زر فانطلق الصوت ، بدأ رجال الشرطة يتحركون من حولى بحثا عن زر الإيقاف لكن للأسف كنت أنا وحدى هذا الزر ولم أكن أستطيع التوقف .

كان مسيو إبراهيم رائعا ، صعد عند سماعه صراخى ، لقد فهم الموقف على الفور ، قال إنه هو الذى سيذهب إلى مارسيليا للتعرف على الجثة ، فى البداية ساورت رجال الشرطة بعض الشكوك ، فقد كان من الواضح من مظهره أنه عربى ، لكننى عدت ثانية إلى الصراخ فقبلوا ما عرضه مسيو إبراهيم .

بعد الدفن سألت مسيو إبراهيم :

ـ منذ متى وأنت تعرف أن والدى قد تركنى؟

ـ منذ كابور ، لكن أتعرف يا مومو؟ يجب ألا تضمر كراهية لوالدك .

ـ حقا ؟ وكيف ذلك ؟ أب يفسد حياتى ويهجرنى وينتحر؟إنه

حقا محل ثقة هائل ، وبعد ذلك يجب علىّ ألا أضمر له كراهية؟!

ـ إن والدك لم يكن أمامه مثل يحتذى به ، لقد فقد والديه وهو صغير جدا ، حين ألقى النازيون القبض عليهما وتوفيا فى معسكرات الاعتقال ، إن والدك لم يستطع تقبل أنه نجا من كل ذلك ، ربما كان يشعر بالذنب من أنه مازال على قيد الحياة ، وليس من قبيل المصادفة أنه انتهى تحت عجلات القطار .

ـ حقا ، لماذا؟

ـ لقد أقل القطار والديه إلى حتفهما ، وربما كان هو يبحث عن قطاره منذ زمن ، وإذا لم تكن لديه القوة على الحياة فذلك لم يكن بسببك يا مومو وإنما بسبب كل ما حدث قبلك ، أو ما لم يحدث .

ثم دس مسيو إبراهيم بعض الأوراق النقدية فى جيبى .

ـ خذ ، اذهب إلى شارع « پارادى» إن الفتيات يتساءلن أين كتابك الذى تكتبه عنهن؟ . .

بدأت أغير كل شىء فى شقة شارع «بلو» ، كان مسيو إبراهيم يعطينى علب الطلاء والفرش ، كما كان يعطينى أيضا بعض النصائح فى التعامل مع موظفة التأمينات الاجتماعية .

بعد ظهر أحد الأيام، بينما كنت قد فتحت كل النوافذ لإطلاق رائحة الطلاء الـ «أكريليك»، دخلت امرأة إلى الشقة، لست أعرف لماذا، ولكن من القلق البادى عليها، من ترددها، من الصعوبة التى وجدتها فى المرور ما بين السلالم الخشبية المنصوبة فى الغرفة، من محاولتها تفادى بقع الطلاء على الأرض، فهمت على الفور من تكون.

تظاهرت بأنى منغمس تماما فى العمل وأنى لم ألحظها، أخيرا تنحنحت بصوت مسموع، فتصنعت المفاجأة:

ـ عمن تبحثين ؟

ـ أبحث عن موييس.

أجابت أمى.

كان عجيبا أنها وجدت صعوبة فى نطق ذلك الاسم، وكأنه قد توقف فى حلقها.

أعطيت نفسى ترف ألا ألقى لها بالا.

ـ ومن أنت؟

ـ أنا أمه.

يا لها من مسكينة أشفقت عليها قليلا ، حالتها يرثى لها، لابد أنها عانت بعنف حتى وصلت إلىّ هنا، أخذت تنظر إلىّ بتمعن محاولة تفقد قسمات وجهى، بدت خائفة، خائفة جدا.

ـ وأنت، من أنت ؟

ـ أنا ؟

انتابتنى رغبة فى أن ألهو قليلا، فمن يريد أن يضع نفسه فى موقف كهذا ؟ خاصة بعد مرور ثلاثة عشر عاما؟!

ـ يسموننى مومو.

كأن وجهها قد انشرح.

أضفت وأنا ألهو:

ـ إنه تصغير لاسم محمد.

بدا وجهها أكثر شحوبا من الطلاء الذى دهنته على الجدران.

ـ حقا ؟ ألست موييس؟

ـ كلا، لا تجعلى الأمور تختلط عليك أنا محمد.

بلعت ريقها، لم تكن غاضبة تماما.

ـ لكن ألا يوجد هنا صبى يدعى موييس؟

وددت أن أجيب: «لست أعرف، إنك أمه فعليك أنت أن تعرفى»، لكن فى اللحظة الأخيرة أمسكت عن ذلك لأن المرأة المسكينة بدت غير قادرة حتى على الوقوف على ساقيها، بدلا من ذلك لجأت إلى كذبة صغيرة تريحها أكثر.

ـ موييس رحل يا سيدتى ، لقد سئم العيش هنا ، فهذا المكان لا يحمل له أية ذكريات سعيدة .

ـ حقا ؟

ساءلت نفسى إن كانت قد صدقتنى ، لم يبد عليها أنها قد اقتنعت ، ربما لم تكن فى النهاية بكل هذا الغباء .

ـ ومتى سيعود؟

ـ لا أعرف ، حين رحل قال إنه يريد أن يبحث عن أخيه .

ـ أخيه ؟

ـ نعم إن لموييس أخا .

ـ أحقا ؟

بدت على وجهها علامات الحيرة .

ـ نعم ، أخوه پوپول .

ـ پوپول؟

ـ نعم يا سيدتى پوپول شقيقه الأكبر .

تساءلت إن كانت تعتبرنى متخلفا أم أنها صدقت أننى محمد .

ـ لكنى لم أرزق بأطفال قبل موييس ، لم أرزق بأى طفل يدعى پوپول .

هنا بدأت أنا أضطرب .

لاحظت ذلك ، بدأت تترنح بشدة فهرعت إلى مقعد قريب وفعلت أنا أيضا نفس الشىء .

ظللنا ننظر إلى بعضنا البعض فى صمت ، بينما أخذت رائحة الطلاء الـ « أكريليك» يخنق أنفاسنا ، ظلت تتفحصنى بدقة دون أن تدع رمشة لعينى تفلت منها .

ـ قل لى يا مومو . .

ـ محمد .

ـ قل لى يا محمد ، هل سترى موييس ثانية؟

ـ من الجائز .

قلت ذلك وكأنى غير مكترث ، ولا أذكر أننى كنت أبدا بهذه الدرجة من عدم الاكتراث ، أخذت تتفحص أعماق عينى ، بإمكانها أن تقوم بتقشيرى كحبة الفاكهة إذا أرادت ، لكنها لن تنتزع منى شيئا ، إنى واثق من نفسى .

ـ إذا رأيت موييس فى يوم ما قل له إننى كنت صغيرة جدا حين تزوجت والده ، وإننى لم أتزوجه إلا لكى أترك بيت أسرتى ،

إننى لم أحب والد موييس قط، لكننى كنت على استعداد أن أحب موييس، ثم حدث أن قابلت رجلا آخر، إن والدك . . .

ـ معذرة ؟

ـ أقصد والده، والد موييس، قال لى : ارحلى لكن عليك أن تتركى موييس وإلا . . ورحلت، فضلت أن أعيد بناء حياتى، أن أحيا حياة بها قدر من السعادة .

ـ بالتأكيد ذلك أفضل .

أطرقت بعينيها .

اقتربت منى، شعرت أنها تريد أن تقبلنى، تظاهرت بأننى لم ألحظ ذلك .

سألتنى فى صوت متوسل :

ـ هل ستخبر موييس؟

ـ من الجائز .

فى نفس المساء ذهبت للقاء مسيو إبراهيم وقلت له ضاحكا :

ـ متى ستتبنانى يا مسيو إبراهيم ؟

قال وهو يضحك هو الآخر :

ـ ابتداء من الغد إن أردت يا صغيرى مومو .

• • •

كان علينا أن نكافح عالم الرسميات، الأختام والموافقات، والموظفين الذين يصبحون عدوانيين كلما أيقظتهم من سباتهم، ولم يكن هناك أحد منهم يرغب فينا، لكن ما من شيء كان يثبط من عزم مسيو إبراهيم .

ـ الرفض معنا فى جيبنا يا مومو، لم يبق علينا إلا أن نحصل على الموافقة .

ووالدتى انتهى بها الأمر، بمساعدة موظفة التأمينات الاجتماعية، أن قبلت مساعى مسيو إبراهيم .

ـ وهل زوجتك يا مسيو إبراهيم قابلة بذلك؟

ـ زوجتى عادت لبلادى منذ زمن بعيد، إنى أفعل ما أريد، لكن إذا أردت بإمكاننا أن نذهب لرؤيتها هذا الصيف .

فى اليوم الذى حصلنا على الوثيقة المشهودة التى تعلن أننى من الآن فصاعداً ابن من اخترته، قرر مسيو إبراهيم أننا يجب أن نشترى سيارة لنحتفل بذلك .

ـ سنقوم برحلات يا مومو، وهذا الصيف سنذهب معا إلى الهلال الذهبى، سأريك البحر، البحر الفريد، مسقط رأسى .

ـ أليس من الأفضل أن نذهب إلى هناك على بساط الريح؟

ـ خذ كتالوجا واختر سيارة .

ـ حسن يا بابا .

كم هو غريب أن تثير نفس الكلمات مشاعر مختلفة فى نفسك، فعندما كنت أقول «بابا» لمسيو إبراهيم كان قلبى يضحك فرحا، كنت أمتلئ ثقة، كان المستقبل يتلألأ أمام عينى .

ذهبنا إلى مدير صالة بيع السيارات .

ـ أريد شراء هذا «الموديل»، ابنى هو الذى اختاره .

كان مسيو إبراهيم أسوأ منى فيما يتعلق بانتقاء الكلمات، كان يضع كلمة ابنى فى كل جملة وكأنه قد اخترع الأبوة لتوه .

بدأ البائع يكيل المدائح لخصائص المحرك .

ـ لا تجهد نفسك فى محاولة إقناعى، أقول لك إننى أريد شراءها .

ـ ألديك رخصة يا سيدى؟

ـ بالطبع .

هنا أخرج مسيو إبراهيم من حافظته الجلدية ورقة يعود تاريخها إلى العصر الفرعونى على الأقل، فأخذ البائع يتفحص الوثيقة فى فزع وكأنها بردية قديمة، أولا لأن معظم حروفها كانت قد محيت، وثانيا لأنها كانت مكتوبة بلغة لا يعرفها .

ـ أهى رخصة قيادة هذه ؟

ـ أليس هذا واضحا؟

ـ حسن، إننا نقترح عليك أن تدفع ثمنها بأقساط شهرية على ثلاث سنوات، إن عليك . .

ـ حين أقول لك إننى أريد شراء السيارة فذلك لأننى قادر على شرائها، سأدفع لك نقدا .

كان مسيو إبراهيم قد جرح، فمن الواضح أن هذا البائع قد ارتكب خطأ على خطأ .

ـ إذن حرر لنا شيكا بمبلغ . .

ـ كف عن ذلك، قلت لك إننى سأدفع نقدا، بالمال، مال حقيقى .

وضع رزما من الأوراق النقدية على المنضدة، رزما جميلة من العملات الورقية القديمة التى رصت فى أكياس من البلاستيك .

كاد البائع يختنق .

ـ لكن . . لكن . . لا أحد يدفع نقدا . . هذا غير معقول!

ـ ماذا فى الأمر ؟ أليست هذه نقودا؟ لقد قبلتها أنا فى خزينتى، فلماذا لا تقبلها أنت ؟ مومو، هل دخلنا محلا جادا؟

ـ حسن، إذن سنفعل التالى: ستكون السيارة جاهزة للاستلام خلال خمسة عشر يوما.

ـ خمسة عشر يوما؟ هذا غير ممكن، سأكون قد مُت خلال خمسة عشر يوما.

بعد يومين أرسلوا لنا السيارة أمام دكان البقالة، لقد كان مسيو إبراهيم شديدا معهم.

حين ركب السيارة ظل مسيو إبراهيم يلمس بحذر جميع الأزرار بأصابعه الطويلة الرفيعة ثم أخذ يمسح عرقه، لم تكن لديه خبرة فى السيارات.

ـ لست أعرف يا مومو.

ـ ألم تتعلم القيادة؟

ـ نعم.. منذ زمن.. مع صديقى عبد الله، ولكن..

ـ ولكن ماذا؟

ـ لكن السيارات لم تكن هكذا.

كان مسيو إبراهيم يجد صعوبة حقا فيما عليه أن يفعل.

ـ قل لى يا مسيو إبراهيم، السيارات التى تعلمت عليها، ألم تكن تجرها الخيول؟

ـ بل الحمير يا صغيرى مومو، الحمير.

ـ ورخصة قيادتك يوم اشترينا السيارة، ماذا كانت؟

ـ خطاب قديم من صديقى عبد الله يروى لى فيه عن محصوله فى ذلك العام.

ـ إذن نحن فى ورطه.

ـ ها أنت قلتها يا مومو.

ـ أوليس هناك شىء فى قرآنك هذه المرة يمكن أن يهدينا إلى حل.

ـ إن القرآن ليس دليل تشغيل ميكانيكى، إنه مفيد فى الروحانيات وليس فى الحدائد، ثم إن وسيلة الانتقال فى القرآن كانت الجمال.

ـ لا تغضب يا مسيو إبراهيم.

فى النهاية قرر مسيو إبراهيم أن نأخذ دروسا فى القيادة معا، وبما أننى لم أكن قد بلغت السن القانونية بعد، فقد كان هو من الناحية الرسمية الذى يأخذ الدروس، بينما كنت أنا أجلس فى المقعد الخلفى دون أن تفوتنى أى من توجيهات المدرب، وبمجرد أن انتهت الدروس أخرجنا سيارتنا وجلست أنا أمام عجلة القيادة، وبدأنا ننساب فى شوارع باريس فى الليل حتى نتفادى الزحام.

بدأت أتقدم شيئا فشيئا.

أخيرا حل الصيف وأخذنا طريق السفر.

آلاف الكيلومترات، عبرنا أوروبا كلها من الجنوب، سنذهب إلى الشرق الأوسط بشبابيك السيارة مفتوحة، كان رائعا أن أكتشف كم يصبح الكون ممتعاً بمجرد أن تسافر مع مسيو إبراهيم، وبينما كنت أنا ملتصقا بعجلة القيادة أركز على الطريق كان هو يصف لى المناظر الطبيعية والسماء والسحب والقرى وسكانها. جاء حديث مسيو إبراهيم بصوت فى رقة ورق السجائر، وبلكنته الخاصة وتشبيهاته وعلامات تعجبه واندهاشه، كان هذا بالنسبة لى هو الطريق من باريس إلى إسطنبول، إنى لم أر أوروبا بل سمعتها.

- أوه! انظر يا مومو، إننا الآن فى حى الأغنياء، انظر لصناديق القمامة.

- وماذا عن صناديق القمامة؟

- إذا أردت أن تعرف إن كنت فى حى غنى أو فقير ابحث عن صناديق القمامة، إذا لم تجد قاذورات ولا صناديق قمامة فهذا حى غنى جداً، إذا وجدت صناديق قمامة ولم تجد قاذورات فهو حى غنى، إذا وجدت قاذورات بجوار صناديق القمامة فهو حى لا غنى ولا فقير، بل حى سياحى، إذا وجدت قاذورات ولم تجد صناديق للقمامة فهذا حى فقير، أما إذا كان الناس يعيشون وسط القاذورات فهو حى فقير جدا جدا.. هنا حى غنى.

- طبيعى فنحن فى سويسرا.

- لا يا مومو لا تأخذ «الأوتوروت» السريع، فالطريق السريع يقول لك امض فليس هناك ما يمكن أن تراه، إنه من أجل الأغبياء الذين يريدون أن يذهبوا بأسرع ما يمكن من نقطة إلى أخرى، أما نحن فنصنع المثلثات والمربعات كما فى الهندسة، إننا فى رحلة، ابحث لى عن طرق صغيرة جميلة تريك كل ما يستحق أن يُرى.

- تقول هذا لأنك لست أنت الذى تسوق.

- اسمع يا مومو إذا لم تكن تريد رؤية شىء فعليك أن تأخذ الطائرة، مثل باقى الناس.

- أهذه منطقة فقيرة يا مسيو إبراهيم؟

- نعم، إنها ألبانيا.

- وهناك؟

- أوقف السيارة، هل تشم؟ تلك رائحة السعادة، إنها اليونان، الناس هنا لا يتحركون كثيرا إنهم يأخذون وقتهم فى التفرج علينا ونحن نمر أمامهم، إنهم يتنفسون، أتعرف يا مومو، لقد أمضيت حياتى كلها أعمل، لكنى لم أكن فى عجلة من أمرى، كنت آخذ وقتى، لم أكن أسعى لجمع الأموال، أو لمراقبة العملاء وهم يصطفون أمام المحل، لا إن عدم العجلة تلك هى سر السعادة، ماذا تريد أن تعمل فى المستقبل؟

ـ لا أعرف يا مسيو إبراهيم، ماذا لو عملت فى الاستيراد والتصدير؟

ـ الاستيراد والتصدير؟

هنا بدا أننى أحرزت هدفا: لقد وجدت التعبير السحرى «الاستيراد والتصدير»، ظل هذا التعبير يملأ فم مسيو إبراهيم فيردده بين حين وآخر، هو تعبير جاد لكنه فى نفس الوقت يحمل روح المغامرة، تعبير يحيلك على الفور إلى السفر، والمراكب والطرود البريدية، إلى الميزانيات الضخمة، تعبير ثقيل إلى درجة أن مقاطعه تتدحرج.. «الاستيراد والتصدير».

ـ أقدم لكم ابنى الذى سيعمل فى المستقبل فى الاستيراد والتصدير.

كانت لدينا ألعاب كثيرة نلعبها أنا ومسيو إبراهيم، كان يجعلنى أدخل إلى الأماكن الدينية معصوم العينين لأتبين كل دين من رائحة مكان عبادته.

ـ هنا توجد رائحة الشمع، إنها كاثوليكية.

ـ نعم، نحن فى كنيسة القديس أنطوان.

ـ هنا توجد رائحة البخور، إنها أرثوذكسية.

ـ نعم نحن فى كنيسة القديسة صوفيا.

ـ هنا توجد رائحة الأقدام، إنها إسلامية، الحقيقة أن الرائحة هنا شديدة للغاية.

ـ ماذا تقول؟ إنه المسجد الأزرق، المكان الذى يحمل رائحة الجسد لا يروق لك؟ هل أقدامك ليست لها رائحة على الإطلاق؟ هل مكان العبادة الذى يحمل رائحة الإنسان، والذى صنع من أجل الإنسان، والذى يوجد بداخله الإنسان، يقرفك؟ إن هناك بعض الأفكار الباريسية بداخلك، أما أنا فعطر الجوارب هذا يملؤنى ثقة وتواضعا. إنه يجعلنى أقول لنفسى إنى لست أفضل من جارى، إنى أشم نفسى، أشم أنفسنا جميعا، وبذلك أكون فى حال أفضل.

ابتداء من وصولنا إلى إسطمبول كان مسيو إبراهيم أقل كلاما، كان يبدو عليه التأثر الشديد.

ـ قريبا سنصل إلى البحر، مسقط رأسى.

مع كل يوم جديد كان يريدنا أن نسير بسرعة أقل، كان يريد التمتع، لكنه كان أيضا خائفا.

ـ أين هو ذلك البحر، مسقط رأسك يا مسيو إبراهيم؟ أرنى إياه على الخريطة.

ـ أوه لا تزعجنى بخرائطك يا مومو، إنا لسنا فى المدرسة هنا.

توقفنا عند قرية فى الجبل.

ـ إنى سعيد يا مومو ، فأنت بجانبى وأنا أعرف ما فى قرآنى . . الآن أريد أن أذهب بك إلى الرقص .

ـ إلى الرقص يا مسيو إبراهيم؟

ـ يجب أن ترقص بكل تأكيد «إن قلب الإنسان مثل عصفور محبوس داخل قفص الجسد» ، حين ترقص فالقلب يغرد مثل العصفور الذى يتوق إلى الذوبان فى الذات الإلهية ، هيا لنذهب إلى التكية .

ـ إلى ماذا؟

• • •

ـ إنه لمرقص غريب هذا!

قلت ونحن نخطى العتبة .

ـ هذه هى التكية . . هى مكان للرقص ، إنها مكان للتعبد . اخلع حذاءك يا مومو .

هنا شاهدت لأول مرة الرجال الذين يدورون ، كان الدراويش يرتدون جلبابا أبيض فضفاضا ، جلبابا ثقيلا لكنه ناعم ، كانت الدفوف تدق وكل درويش يدور حول نفسه كالدوامة .

ـ أترى يا مومو كيف يدورون؟ إن كلا منهم يدور حول قلبه الذى هو مكان وجود الرب ، إنها صلاة .

ـ أتسمى هذه صلاة؟

ـ بالطبع يا مومو ، إنهم يفقدون كل علاقة لهم بالأرض ، بذلك الثقل الذى نسميه الجاذبية ، ويتحولون إلى مشاعل معلقة تفنى فى لهب كبير ، جرب يا مومو ، اتبعنى .

أخذنا ندور أنا ومسيو إبراهيم .

فى الدورات الأولى أخذت أقول لنفسى إنى سعيد مع مسيو إبراهيم ، ثم بدأت أقول : إنى لم أعد غاضبا من والدى لأنه رحل ، وفى النهاية قلت أيضا : فى الحقيقة لم يكن هناك خيار حقيقى أمام أمى حين . .

ـ إيه يا مومو ، هل شعرت بأشياء جميلة؟

ـ نعم إنه شىء غير معقول ، إن كل أحقادى بدأت تتلاشى ، لو أن الدفوف قد استمرت ولم تتوقف لربما كنت قد عالجت حالة والدتى ، كم كانت ممتعة هذه الصلاة يا مسيو إبراهيم حتى وإن كنت أفضل أن أصلى بحذائى الرياضى ، كلما ثقل الجسد خفت الروح .

منذ ذلك اليوم كنا كثيرا ما نتوقف فى التكايا التى كان يعرفها مسيو إبراهيم كى ندور ، كان هو فى بعض الأحيان لا يدور ، كان يكتفى باحتساء الشاى وعيناه نصف مغمضتين ، بينما كنت أنا أدور كالمجنون ، بل كنت أدور فى الحقيقة كى أصبح أقل جنونا .

فى المساء فى ساحات القرى كنت أحاول أن أتحدث قليلا إلى الفتيات. كنت أبذل أقصى جهدى لكن بلا جدوى، بينما مسيو إبراهيم لم يكن يفعل أكثر من أن يحتسى «السوز آنى» بنظرته الجميلة الهادئة، ولم تكن تمر ساعة من الزمن حتى كانت تحيط به أعداد كبيرة من الناس.

- إنك كثير الحركة يا مومو، إذا كنت تريد أن يكون لك أصدقاء فيجب ألا تتحرك.

- مسيو إبراهيم، هل تجدنى وسيما؟

- إنك وسيم جدا يا مومو.

- لا ليس هذا ما اقصده. . هل تجد أننى وسيم بالقدر الذى يمكن أن يعجب الفتيات. . دون أن أدفع؟

- بعد بضع سنوات سيدفعن هن لك.

- ومع ذلك. . فى الوقت الحالى. . السوق راكد.

- بالطبع يامومو، أرأيت كيف تتصرف؟ إنك تنظر لهن كأنك تقول: «أرأيتن كم أنا وسيم»، لذا بالتأكيد سيضحكن منك، عليك أن تنظر لهن وكأنك تقول «إننى لم أر فى حياتى من هى أجمل منك»، فالرجال العاديون مثلى ومثلك ـ وليس مثل آلان ديلون أو مارلون براندو ـ وسامتهم هى ما يجدونه فى المرأة.

نظرنا إلى الشمس وهى تختفى بين الجبال، وإلى السماء وهى تتحول إلى اللون البنفسجى وأخذ بابا يحدق فى نجمة المساء.

- إن هناك دائما سلما وضع أمامنا حتى نهرب من أنفسنا يا مومو. الإنسان كان فى البداية معدنا، ثم نباتا، ثم حيوانا - والمرحلة الحيوانية هى ما لا يستطيع الإنسان أن ينساها وكثيرا ما يميل إلى أن يعود إليه ـ ثم أصبح الإنسان بعد ذلك إنسانا حصل على نعمة المعرفة والرشد والإيمان، أتتخيل الرحلة التى قطعتها أنت من التراب إلى اليوم؟ وفيما بعد حين تكون قد تخطيت حالة الإنسان، ستصبح ملاكا، وستكون قد فرغت من الأرض وما عليها، إن بإمكانك أن تشعر بإرهاصات ذلك حين تدور.

- إننى على أى حال لا أتذكر أيا من هذه الحالات، هل تتذكر أنت يا مسيو إبراهيم أنك كنت نباتا؟

- معلوم، ماذا تظننى أفعل حين أبقى ساعات دون أن أتحرك فوق كرسىّ الصغير فى دكان البقالة؟

ثم جاء اليوم المشهود حين أخبرنى مسيو إبراهيم أننا سنصل إلى بحر ميلاده ونلتقى بصديقه عبد الله، كان فى حالة اضطراب كاملة مثل شاب صغير، كان يريد أن يستكشف الطريق وحده أولا، فطلب منى أن أنتظره تحت إحدى شجيرات الزيتون.

كان الوقت هو وقت القيلولة فاستندت إلى جذع الشجرة ونعست .

حين صحوت كان النهار قد ولى ، وانتظرت مسيو إبراهيم حتى منتصف الليل .

مشيت حتى القرية التالية ، حين وصلت إلى الساحة تدافع الناس نحوى ، لم أفهم لغتهم ، لكنهم كانوا يتحدثون إلىّ بالإشارات ، وبدا وكأنهم يعرفوننى جيدا ، قادونى إلى منزل كبير ، عبرت فى البداية صالة فسيحة حيث جلست بعض النساء القرفصاء وهن ينحن ، ثم أخذونى إلى مسيو إبراهيم .

كان ممددا وقد تغطى بالجروح والكدمات والدماء ، كانت السيارة قد اصطدمت بحائط .

بدا ضعيفا جدا .

ارتميت عليه ، ففتح عينيه وابتسم .

ـ هذه هى نهاية الرحلة يا مومو .

ـ لا ، إننا لم نصل بعد إلى البحر مسقط رأسك .

ـ بلى ، أنا قد وصلت ، إن كل أفرع النهر تصب فى نفس البحر ، البحر الأوحد .

كان كل ذلك يحدث رغما عنى ، بدأت أبكى .

ـ هذا لا يرضينى يا مومو .

ـ لكنى خائف عليك يا مسيو إبراهيم .

ـ أنا لست خائفا يا مومو ، إنى أعرف ما فى قرآنى .

تلك الجملة لم يكن عليه أن يقولها ، لقد أعادت إلىّ الكثير من الذكريات الجميلة فأخذ نشيجى يزداد .

ـ مومو إنك تبكى على نفسك ، أما أنا فقد عشت حياة سعيدة ، عشت طويلا ، كانت لى زوجة توفيت منذ زمن بعيد ، لكنى مازلت أحبها كما كنت دائما ، كان لى صديقى عبد الله الذى سترسل إليه سلامى ، بقالتى الصغيرة كانت تسير على ما يرام ، وشارع «بلو» هو شارع جميل حتى وإن لم يكن لونه أزرق ، ثم كان هناك أنت .

ولكى أرضيه بلعت كل دموعى ، بذلت جهدا .

ابتسامة !

كان سعيدا وكأن ألمه قد خف .

ابتسامة !

أغمض عينيه فى هدوء .

ـ مسيو إبراهيم ؟

ـ صه ، لا تقلق ، إننى لن أموت ، بل سألحق بالاتساع اللانهائى .

وهكذا كان الأمر .

ظللت هناك بعض الوقت ، تحدثنا كثيرا عن بابا أنا وصديقه عبد الله ، ورقصنا كثيرا أيضا .

كان مسيو عبد الله مثل مسيو إبراهيم ، وكأنه مسيو إبراهيم وقد ازداد حكمة ، كان مليئا بالأقوال النادرة ، بالقصائد المحفوظة عن ظهر قلب ، كأنه مسيو إبراهيم وقد أمضى وقته فى القراءة أكثر مما أمضاه فى ضرب جرس خزينته ، والساعات التى كنا نمضيها فى الدوران كان يسميها رقصة السيمياء ، الرقصة التى تحول النحاس إلى ذهب ، كان كثيرا ما يتلو أبياتا لجلال الدين الرومى :

الحى ، اجعله يموت : إنه جسدك

الميت ، اجعله يحيا : إنه قلبك

الحاضر ، خبئه : إنه الحياة الدنيا

الغائب ، اجعله يحضر : إنه

الحياة الآخرة

الكائن ، اجعله يؤول إلى العدم :

إنها العاطفة

غير كائن ، اخلقه : إنها النوايا

• • •

وهكذا أصبحت أدور الآن كالدراويش ، كلما ساءت الأمور .

أدور وإحدى يدىّ متجهة إلى السماء ، واليد الأخرى متجهة إلى الأرض ، وأدور والسماء تدور فوقى ، وأدور والأرض تدور تحتى ، إننى عندئذ لا أكون أنا ، ولكن إحدى تلك الذرات التى تدور نحو الفراغ الذى هو كل شىء .

مثلما كان يقول مسيو إبراهيم :

- ذكاؤك فى كاحلك ، ولكاحلك طريقة عميقة جدا فى التفكير .

عدت إلى فرنسا بطريقة «الأوتوستوب» ، أسلمت أمرى لله كما كان يقول مسيو إبراهيم حين يتحدث عن المتشردين ، شحذت ، ونمت فى الخلاء ، وهذا أيضا كان هدية جميلة ، لم أشأ أن أنفق الورقات المالية التى دسها لى مسيو عبد الله وهو يقبلنى عند رحيلى .

وصلت إلى باريس لأجد أن مسيو إبراهيم قد أعد لكل شيء ، لقد حررنى أخيرا من أسرى :

أصبحت حرا إذن ، ورثت كل أمواله ، بقالته ، قرآنه .

سلمنى الموظف المظروف الرمادى ، وأخرجت منه بعناية الكتاب القديم ، سأعرف أخيرا ماذا فى قرآنه .

فى قرآنه كانت هناك وردتان مجففتان وخطاب من صديقه مسيو عبد الله .

والآن أنا مومو ، الذى يعرفه الجميع فى الشارع ، لم أعمل بالاستيراد والتصدير فى نهاية الأمر ، قلت ذلك لمسيو إبراهيم فقط كى أبهره قليلا .

أمى تأتى لرؤيتى بين آن وآخر ، وهى تسمينى محمدا حتى لا تغضبنى ، وتسألنى عن أخبار موييس ، فأنقلها لها .

قلت لها مؤخرا إن موييس عثر على شقيقه پوپول وإنهما سافرا فى رحلة معا ، وبأنى أعتقد أننا لن نراهما قريبا ، ولعله لم يعد هناك جدوى من الحديث فى هذا الشأن ، فكرت والدتى مليا ـ وهى دائما حذرة معى ـ ثم همست لى برفق :

ـ على أى حال ربما كان ذلك أفضل ، هناك بعض مراحل الطفولة التى ينبغى أن نتركها وراءنا ، مراحل ينبغى أن نبرأ منها .

قلت لها إن علم النفس ليس تخصصى ، فأنا بقال .

ـ أود أن أدعوك ذات مساء على العشاء يا محمد ، زوجى أيضا يود أن يراك .

ـ ماذا يعمل ؟

ـ مدرس لغة إنجليزية .

ـ وأنت؟

ـ مدرسة لغة إسبانية .

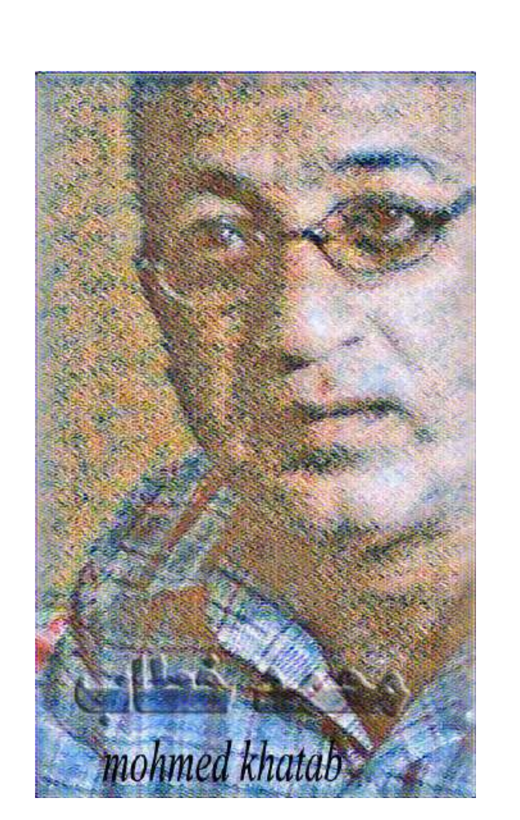
ـ وبأى لغة سوف نتحدث خلال العشاء ؟ . . لا ، كنت أمزح ، اتفقنا .

تورد وجهها بهجة لقبولى ، كان حقا مشهدا يسر العين ، وكأنى قد أدخلت أخيرا الماء الجارى إلى منزلها .

ـ إذن ستحضر حقا؟

ـ أجل ، أجل .

من المؤكد أنه لموقف عجيب أن يستقبل اثنان من أساتذة النظام التعليمى القومى محمدا البقال ، لكن على أى حال ، لم لا ؟ إننى لست عنصريا .



وهكذا اتخذت الآن الأشياء مسارها . .

كل يوم اثنين أذهب إليهم مع زوجتى وأولادى .

ولأن أولادى عاطفيون، فهم يسمون مدرسة اللغة الإسبانية «جدتى»، وهذا يدخل السرور إلى نفسها، إنه مشهد جدير بالرؤية، فى بعض الأحيان تسألنى بحذر وسط اغتباطها إن كان ذلك يضايقنى، فأجيبها بالنفى وبأننى أتقبل روح الدعابة .

وهكذا إذن أنا الآن مومو، المسئول عن دكان البقالة الواقع فى شارع «بلو»، الشارع الأزرق الذى هو ليس بأزرق .

وبالنسبة للناس جميعا أنا العربى الذى على الناصية، وعربى فى عالم البقالة تعنى «مفتوح فى المساء وفى أيام الآحاد» .